المحاضرة السابعة : التوجه العصبي في السيكوسوماتية

لتجاوز المعيقات البحثية في المجال السيكوسوماتي لجأ العلماء في بداية ظهورهذا التخصص إلى التجربة على الحيوان كان منها :

1-البحوث التي قامت على دراسة الحيوان :

1-1- أعمال بافلوف :

تعد أعمال بافلوف من بين البدايات الأولى لهذا الشكل من الأبحاث , حيث كان يهدف إلى الوصول إلى تفسير فزيولوجي للجانب النفسي .سعى بافلوف إلى تحقيق هذا الهدف العلمي من خلال دراسة ردود الأفعال الجسمية إزاء المثيرات الخارجية, بتعريض الحيوان إلى عدد من الوضعيات المقيَدة و الضاغطة, منها ما كان يشمل إثارة وكبح في آن واحد , مما يجعل الحيوان في حالة استثارة شديدة و غير قادر على التمييز بين المثيرات المتضادة , الأمر الذي نتج عنه استجابات فزيولوجية مختلفة تجسد حسب بافلوف "عصابا تجريبيا" عند الحيوان ,حيث يترجم في اضطرابات في السلوك و اضطرابات عصبو إعاشية و أمراض جسمية مثل ارتفاع ضغط الدم , الذبحة الصدرية , القرحة ... .

شكلت نتائج هذه الأبحاث العلمية التجريبية عنصرا هاما في فهم المرض عند الانسان وقد قام بافلوف بتعميمها على الإنسان لأنه كان يرى "أن القوانين الأساسية التي تتحكم في نشاط الإنسان هي نفسها التي تتحكم في نشاط الحيوان , و السبب في ذلك أنه نشاط لنفس النسيج العصبي".

هكذا بين بافلوف أن الإنسان إذا تعرض إلى فرط من الضغوطات سيصاب سريعا بخلل فزيولوجي و سلوكي في ذات الوقت , فالمعاش النفسي المميَز بضغط و شدة يصعب تجاوزها يؤدي إلى خلل على مستوى أعضاء الجسم و إلى أمراض .

1-2- أعمال كانون :

دارت أعمال كانون W.B.Cannon حول تحديد نتائج الخوف أو الذعر على الوظائف الفزيولوجية الرئيسية , وقد توصل إلى أنه تحت تأثير إنفعال قوي فإن الجهاز العصبي يحث على إفراز هرمون الأدرنالين, بهدف فتح المجال بشكل أكبر لوظائف فزيولوجية تكون أكثر ملاءمة للوضعية , وقد توصل كانون إلى تحديد وظيفة الجهاز السمباتي و اللب الكظري في الحث على إفراز مكونات طاقوية من أجل التحضير للفعل , من أجل تهيئة الجسم لمواجهة مصدر التهديد أو الهروب.من ناحية تعتبر هذه الاستجابة تكيفية و من ناحية أخرى قد تسبب الأذى للجسم وتؤدي إلى ظهور مشاكل صحية .

1-3- أعمال لانفيلد :

تمثلت في دراسة فئران مخبر معرضة لضغط دائم , نتج عنه موت مجموعة من خلايا الجهاز الطرفي (الذي يلعب دورا في الذاكرة و التحفيز و تنظيم الإنفعالات و يتكون من حصان البحر و اللوزة و الحاجز) , مع إفراز هرمون الكورتيزول (هرمون الضغط المزمن) الذي تسبب في ظمور عظمي و انخفاض مستوى امتصاص الكالسيوم و كذا في ظهور الشيخوخة المبكرة.

1-4- أعمال سيلي :

سعى إلى توضيح كيف تستجيب الجسم أمام المثيرات الضاغطة للمحيط بتعريض مجموعة من الفئران إلى مجموعة متنوعة من الضغوط طويلة المدى مثل البرد الشديد و التعب , فوجد أن جميع المثيرات الضاغطة أدت الى ظهور نفس الإستجابة الفزيولوجية عند الفئران و التي تمثلت في: تضخم قشرة الغدة الكظرية , و تقلص الغدة التيموسية و الغدد اللمفاوية , إضافة إلى قرحة المعدة .

وقد توصل سيلي إلى أنه أمام مثير مفاجئ مهما كانت طبيعته يستجيب الجسم بشكل كلي, " و تكون الإستجابة التي تصدرعنه غير محددة أي لا تختلف باختلاف مسببات الضغط , مما يعني تقديم نفس النمط من ردود الأفعال الفزيولوجية بغض النظر عن المثير الضاغط , و مع مرور الزمن و مع التكرار أو استمرار التعرض للضغط يتعرض الجسم إلى عوامل التمزق و الإهتراء ."

وهذا ماعرف بالتنادر العام للتكيف" (syndrome génerale d'adaptation) المعروف اختصارا بـ SGA الذي يتكون من ثلاث مراحل :

- المرحلة الأولى هي مرحلة الإنذار أو التنبيه (phase d'alérte) :

فيها تتهيأ العضوية و تصبح مستعدة لمواجهة التهديد , " فهي مجموع ظواهر عامة تستثار نتيجة المواجهة الفجائية لعامل ضاغط يكون الجسم غير متكيف معه".

في هذه المرحلة يكون الجهاز السمباتي و اللب الكظري في حالة نشاط فالأمر يتعلق باستجابة فزيولوجية فورية متميزة بإفراز الأدرينالين و النور أدرينالين دوره هو تحضير القوة مع زيادة في ضربات القلب , زيادة في سرعة التنفس , رفع ضغط الدم .

و يغلب على هذه المرحلة فرط التنبيه

– المرحلة الثانية هي مرحلة المقاومة (phase de lutte) :

"هي مجموع ردود أفعال ناتجة عن مواجهة الجسم المطولة لمثير ضاغط ."

فيها تقوم العضوية ببذل الجهد للتعامل مع التهديد و يتم خلالها تنظيم المخزون الطاقوي من أجل رفع قدرة التحمل فنظام تحت المهاد و الغدة النخامية و الغدة الكظرية تؤدي وظيفة تكوين الغليكوجان من أجل تكوين الطاقة و مراقبة الأنظمة الأخرى و رد فعلها الزائد الذي قد يسبب المرض.

– المرحلة الثالثة هي مرحلة الإنهاك (phase d'épuisement):

"هي مجموع ردود الأفعال التي تميز الوقت الذي يكف فيه الجسم ويتوقف عن التكيف مع المثير الضاغط الذي تعرض له." تحدث إذا فشلت العضوية في التخلص من التهديد و استنفذت جميع مصادرها الفزيولوجية خلال محاولاتها للتكيف مع الحدث .

لما يتجاوز التكيف قدرات الفرد مع استمرار الضغط يظهر :

إنهاك الغدة الكظرية , ضعف الغدة السعترية , أمراض مختلفة مثل : قرحة المعدة

هذه المرحلة عبارة عن اختلال توازن مع عدم تكيف الفرد مع المحيط لأن الوضعية تفوق القدرة التكيفية على المستوى الجسدي و النفسي.

2– البحوث التي قامت على دراسة الإنسان :

أجريت دراسات قامت على الفرد المريض كان منها :

دراسة وولف على طوم في مرحلة الرشد و على مدى 5 سنوات تم فيها التركيز على لون المعدة و درجة حموضتها و حركتها في ظروف انفعالية مختلفة وتوصل الى ان:

– استجابة المعدة للانفعالات تكاد تكون فورية و واضحة

– في حالات غضب طوم يلاحظ احمرار و تورم وانتفاخ الأغشية الداخلية للمعدة مع زيادة في انقباضات عضلاتها و ارتفاع في نسبة افراز العصارة الحامضة , مما يساعد على تآكل غشاء المعدة وقد يستمر هذا الوضع لعدة اسابيع .

– حركات المعدة في حالة الانفعال الشديد لاتتوقف بعد مرور الطعام الى الإثني عشر , بل تستمر في حركاتها و افرازاتها كما لو كان الطعام لازال موجودا فيها , مما يعرض جدار المعدة الى التلف أو النزيف.

– في حالات الخوف و الحزن و الإكتئاب لوحظ شحوب أغشية المعدة و انخفاض نسبة العصارة الحامضة و كف المعدة عن الحركة."

– في الحالات الانفعالية التي يصاحبها انطواء و فقدان الشهية للطعام تكون العصارة الهاضمة قليلة و غير كافية لهضم الطعام , الى جانب نقص في عملية الامتصاص.